انتظارات

مصطفى خضر

قبل أن تشتعل الوردة ، أو تشتعل البذرة في الرحم ،
وتخضرّ الجسور
قبل أن تشتعل القبلة في الاسنان ،
أو يرتبك الجندي في نصب ضحايا الوطن الرسمي
والمجهول ،
في تنظيف عينيه ، وفي جمع بقايا الفضلات
قبل أن يختلط الابيض بالاسود ،
أو يختلط الاسود بالابيض ،
في ليل انتظار الأمهات ...
كيف لا أدخل في ساعتك الملأى بأنثى الحيوان
تغمر الاوراق والثلج محيط الجسد البريّ بالطل ،
وتهمي اليرقات
تخرج البذرة من عزلتها السرية الآن ،
يذوب العالم الطالع في ماء ونور
بانتظار السفر الكامن في ليل النواة
وأنا أحمل اسمائي واشيائي ،
أهزّ الغابة الميتة في قلب الحضور
وأرى قاتلك القادم ما بين ظهور وظهور
عابرا عبر انسلاخاتي ...
وما زلت ، كما كنت ، أدور
تتخفى لفتي في جبل الطور ، وفي الغار ،
ومن سر الى سر ، ومن عصر الى عصر ،
أراها عبرت بين صدور ورئات ...

* * *

أين أجراس الجذور
ومرايا القبل الزائفة امتدت ،
وساعات رماد الحب تمتد ربيعا ،
يحمل الاسمال من نهر الى نهر ، ومن فصل الى فصل
يغور
طالعا في النسغ والماء، وفي وهج رخام الفرح المفترس:
(الوجه بشكل الخبز ،
والخبز بطعم الوجه ...
بين الموت والميلاد ،
تخضرّ سماء وسماء !)
اختلطت أمس عظامي بالبذور
صرت أطباقا على مائدة الحكّام والتجار ،
اعلنت مجيء القادة السادة ،
في الازمنة الهشّة ...
كوكتيل النساء السيدات ،
السرر المرفوعة ، الاعمدة المنصوبة امتدت

وكان الدم فيها والبخور !
(آه ! كم كان مهيبا
ذلك المستودع الفائض بالاوسمة :
السوداء والحمراء والبيضاء)
والصمت الوقور
يمزج الخمرة بالثلج . وبالجرح العطور !

* * *

فاصل بين مياه ومياه :
تلد اليابسة الاخرى ،
سماء الهجرة الآتية ،
الصوت يضيء الحبل الكاذب في أرض جدار الثورة !
(السكين فوق العنق ...
السكين فوق الحلق ...)
هنا الفصل الذي يبتكر الاوقات :
أزياء ، جلودا ، وفراء ...
وبقايا سيدات ...
وجهات ، مدن عمياء بين الصوت والصوت ،
ملفات ظلال الشرطة السرية الاوراق
في الليل الغريب الأخوي
تتخفى في خلايا ودماء
حدقات تتلقى البركات
وطيور اللغة الميتة هرّت
يسقط الظلّ على الصوت !
وتهتزّ عروق الكلمات :
مثل صلبان عيون الأمهات
مثل أجياد عشاء الشجر المهجور ،
أو نهر جنود الشعب في قاعات مستشفى ،
وفي ضاحية كان لها رائحة الخبز، وطعم البصل...

الآن ! تنكرت بزيّ المطر المطرود من فصل الى فصل،
ومن سجن الى سجن ،
وما زلتِ تقيمين النذور
وتكاثرتِ ، استعدت الصلوات
قامة ، ثديا ، فما ...
ثم تصاعدتِ عطايا وهبات !
وأنا ما زلت أستيقظ في صبح ذراعيكِ ،
أرى كيف استدار ، اتسع البطن ،
أرى الاعشاش في شعركِ تبنيها العصافير ،
بيوض السمك المذعور ...
آه ! كنتِ بين الثلم والتربة تخفين سجاياك ،
وكانت كائنات الارض تنمو ،
وخطى الاطفال تنمو ، وتغور
في قناديل زجاج الطرقات !

* * *

آه ! يا أيتها الطالعة ، الواسعة ، الكامنة ، الضائعة
الليلة ! فلينصت اليّ
رأسكِ المقطوع في موسمك الضائع ،
ملء الفم ، ملء الروح . ملء الشارع المحشو بالبارود
والنار :
« من القاتل ؟! »
أين الشفة الكاذبة ، الصامتة ، المرة ،
أين الحرس الطائف بين الظل والظل ،
وبين الصوت والصوت ...
العشايا عبرت بين الجراح
ادخلي بين الجذور
أي باب تعبرين
في الرقاد الدمويّ
بين شارات الزمن البشري
بين ثدييك يبيت الزبد الطافي ،
فأين السنبل ... الزهر ... اللقاح !

* * *

قبل أن يرتبك الجندي في تنظيف عينيه ،
وفي مسح السلاح !
قبل أن تنتشر السيدة الذائعة الصيت ،
وتقضي عمرها في صحف الشاي ، وحفلات المساء
قبل أن تستيقظ الامة في اعلامها الرسمي ،
أو ترقد في اعلامها الرسمي ،
في نشرة أسعار الخضار
هل تلقيتِ دمي ، وجهي القديم المستباح
ورأيتِ الدم في الشارع يجري شبحا ،
ورأيتِ القاتل المقتول في زيّ القضاة !
هل تلقيتِ دمي ؟
كان حجاب بيننا ،
كان انتظار للعبور
وتداخلنا معا ! بين نشيج الأمهات ،
وتحيات المساء
قبل أن نسقط في صحن الفواتير هنا ،
بين مبيع وشراء !
بين ساعات الجماعات، وساعات انتظار العالم الساقط
في بئر الجنون

وبقايا شهوة الموت اراها في جنين الماء ،
أوراق رحيل التربة النازفة ،
الرائحة المكفولة ،
القنبلة الموقوتة الاجراس ،
برج القوس والنشاب
تكوين سديمي يحلّ :
انتظري بين الفصول ،
انتظري بين العيـون ،
انتظري بين ركام السـندات
وأقيمي في تفاسير من الجبس ،
وفي أزمنة الحكام عودي ،
انتفضي في عرس فخذيك :
تبوح الجبنة الفاسدة ، البيض الرديء !
العاشق القابع في اللوحة
حلت فيه ذكرى الامة الفائرة ،
القاتل والمقتول في اللوحة !
آه ! اختلطت أمس عظامي بالبذور
وسراويل المساء
في عشيـات وجوه العائدين الغرباء !
بعشيـات وجوه الأمهات ، الصابرات ، القانتات ...
(هوذا الوجه الفلسطيني ! لا ...
الوجه من سيناء ! لا ...
الوجه من ناحيـة «القطّاع» ! لا ...)
اي وجوه عبرت نحوك من كل الجهات
وهي تبكي في حياء
في أقاليم اغتيالات النخيل، الحجر ، الطير الولود :
(امراة الحب !الودود
تتعرى في سرير الحيل العمياء ،
تعرى وتجود !)
وأنا أدخل في باب جحيم الفقراء
ضائعا في كتب الحبّ ، وتحسين السلالات ،
وتسمين خراف الزمن الضائع ،
في عاصمة الروح !
وذكر البشر الاموات والاحياء ،
في أضرحة الاشياء ،
من عصر الى عصر أجرّ العربات
بين أسراب شعوب المدن المقهورة ،
الاشياء والاسماء تجري ، وتدور ...

*

(سيدي ! نخب زمان
«يضبط» الامة في خيط نسيج أمريكي نحيل
سيدي ! نخب الزمان المستحيل)

*

بين برج الطين والظلمة يطويني ويطويها
ظهور ، وظهور
آه ! يا أيتها العارية، الجارية ، السارحة ، الجارحة ،
الآن ! بلا عائلة ، بعد اغتراب وانطفاء :
هل تقيمين بلا ذاكرة ؟
أين تسللت ؟
وآثارك كيف امحت ؟
(السكين فوق العنق ...
السكين فوق الحلق ...)
... وكانت خطوات بيننا تعدو ،
فتعدو طرقات !
بيننا كان حجاب ومزاد واحتفالات
تمدّ العملة الباطلة !
الوجه ، القفا يلتقيان ، الآن ، في سوق التواريخ ،
يضيع الكائن الحيّ نثارا من كسور !
يتخفى ، أتخفى ، تتخفين :
شعاعا في عيون الخبز والماء ،
وسرّ القمر الطالع في الايدي ،
وسحر الادوات
وتذوبين انتظارا في الخفاء ،
ودما بين ضجيج الخطوات
وانا منشطر ، منتظر حتى اللقاء
هوذا قنديلك الارضي ! آه اي باب تعبرين
خلف باب الفقراء !

حمص — **مصطفى خضر**